الأهرام

المصدر: الشرق الاوسط

التاريخ: ١٧ ذو الحجة ١٤٠٦ هـ

الاسلام وآثاره في العالم الجديد

بقلم: الدكتور حمدي حسن

يتميز الاسلام بانه الدين الوحيد الذي اخى بين البشر جميعهم عربهم وعجمهم، وانه لا فرق بين انسان واخر الا بالتقوى. هذا بعكس ما في التراث الانساني الذي يمتلىء بافكار الاستعلاء العنصري وافضلية جنس على اخر، حيث ان هذه الافكار العنصرية السائدة في التراث البشري في حقيقتها لا تكشف عن مزاعم عنصرية قدر كشفها عن اعتزاز بالجماعة وافضليتها على غيرها. غير ان الرق العنصري والاستعباد العنصري باعتباره اسلوب حياة هو منتج اوروبي بحت اقامته الثقافة الاوروبية على مسرح الحياة في الامريكتين.

فلسنا نجد مجتمعا من المجتمعات انتج شعراء وفلاسفة وديبلوماسيين يؤمنون بالعنصرية وينادون بها مثلما نجد المجتمع الاوروبي. وهو ايضا اكثر المجتمعات التي ربطت بين قيمها الدينية والاجتماعية والاخلاقية وبين العنصرية، لكن عندما اشرق الاسلام على الغرب فانه طالب بالقضاء على ذلك نهائيا.

يقول كافين رايلي رئيس جمعية التاريخ العالمي «انه لا توجد حالة واحدة في التاريخ اصبحت فيها الافكار العنصرية هي الشغل الشاغل لمجتمع وثقافة ما مثلما نجد عند الاوروبيين. والتساؤل الآن: لماذا الاوروبيون دون غيرهم هم الذين سمحوا لجرثومة العنصرية أن تصبح وباء اجتاح مجتمعاتهم ومجتمعات اخرى في انحاء متفرقة من العالم؟ لقد كان العبيد دوما اخلاطا من جنسيات وشعوب فيها الأسود والابيض والأصفر. فلم احتتم الأوروبيون ملحمة العبودية باسترقاق جنس واحد هو الجنس الافريقي الأسود؟ حتى يصبغها

الباحث الانجليزي دافيدسن بقوله: ان تجارة الرقيق اتخذت معنى جديدا حين شرعت السفن الاوروبية تنقل الاف الشباب من داخل وساحل افريقيا وتدمي الحياة في القارة. لقد تحولت النخاسة على يد الأوروبيين الى تجارة اشبه ما تكون بالموت الأسود الذي اجتاح اوروبا بل اشد قسوة. فالوباء الذي تعرض له الأوروبيون قد انقضى وانقضت اثاره. ولكن القهر الذي تعرض له الافريقيون وعاشوه، لم تكن لتنقضي آثاره. فالطاعون لم يغط اوروبا الا عددا من السنين بينما استمرت تجارة الرقيق على يد الأوروبيين تحصد السكان حصدا وتهدد معنويات من يبقى اكثر من اربعة قرون».

ان تفسير ذلك لا يكمن كله في ان قوة الاوروبيين هي التي ادت الى ذلك وكانه كان يمكن ان يفعل الافريقيون الشيء نفسه مع الأوروبيين لو انهم كانوا اشد منهم قوة. فالثقافة الافريقية لا تنطوي على ما يدل على رغبة في استرقاق الأوروبيين وقهر

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأمريكيين ان استطاعوا.

ان معظم الجوانب والتفسيرات تكمن في الثقافة الأوروبية التي تبلورت قبل عصر الكشوف الجغرافية ومهدت الطريق أمام العقل الأوروبي أن يبرر لنفسه سياسة قنص وصيد البشر في أمان وأن يجعل من العنصرية وباء اجتاح العالم بأسره.

لقد كانت الثقافة الأوروبية ـ ولاتزال ـ تزود أبناءها بالسلاح يصنع به فصلا جديدا مؤلما في الاستعباد. خرج الأوروبي بهذا التصور عن الأبيض والأسود عن حدود قارته، ليتعامل مع بني الانسان، ان وجده أبيض انتمى اليه وان وجده أسود اعتدى عليه، ولكن روافد ثقافية لحسن الحظ كانت قد هبت رياحها على بعض أجزاء القارة الأوروبية ساهمت الى حدود بعيدة في تخفيف احساس بعض أبناء القارة البيضاء بعظمة اللون الأبيض واحتقار اللون الأسود. هذه الروافد الثقافية جاءت من حضارة المسلمين، لقد بات الأوروبيون الشماليون يوحدون بين السواد والتخلف ما عدا الذين عاشوا في جنوب القارة في شبه جزيرة ايبريا التي شهدت عظمة الحضارة الاسلامية في الاندلس، حيث مكنت هذه الحضارة سكان هذه المناطق من الأوروبيين من الاطلاع على حضارة المسلمين ذوي اللون الداكن. هذا الاتصال الحضاري خفف الى حد بعيد من احساس الاسبان والبرتغال بالمعاني السلبية التي ينطوي عليها اللون الأسود. لقد عايش الاسبان المسلمين القادمين من شمال افريقيا منذ الفتح الاسلامي عام ٧١١، وعبر تاريخ طويل تعلم الاسبان والبرتغال ان ينظروا باعجاب وانبهار الى الثقافة الاسلامية الغنية التي ازدهرت في الاندلس والمدن الافريقية الكبرى.

يقول رئيس جمعية التاريخ العالمي «لقد كان من المستحيل على المتعلمين من اهالي شبه جزيرة ايبريا أن يوحدوا بين السواد والتخلف، فالمسلمون ذوو البشرة الداكنة صنعوا على الأرض الأوروبية حضارة ومدنية زاهرة، عكس الانجليز الذين وحدوا بين اللون الأسود والتخلف لأن جهلهم بالحضارة الاسلامية كان كاملا أو يكاد».

تفاعل واضح

ان التفاعل الثقافي للاسبان والبرتغال مع حضارة المسلمين لم يكن ليقف بآثاره عند تخفيف حدة ازدرائهم واحتقارهم لكل ما هو أسود أو داكن اللون، بل أن التأثير الاسلامي في ثقافة اهل جنوب اوروبا من الاسبان والبرتغال ترك تأثيرات بعيدة

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

المدى على طبيعة المجتمع الذي انشأه الاسبان والبرتغال في امريكا اللاتينية، مما جعل المجتمع العبودي في هذه القارة يختلف اختلافا كبيرا عن المجتمع العبودي الذي انشأه الانجليز في امريكا الشمالية. هذا الاختلاف يعكس المؤثرات الثقافية التي بلورت فكر هؤلاء واولئك وهم بصدد انشاء مجتمعات جديدة في العالم الجديد.

هذا الوضع الثقافي انعكس على مجتمعات العبودية التي انشاها الاسبان والانجليز في المجتمعات الجديدة في الامريكتين، الانجليز اكثر تحاملا والاسبان اقل بسبب احتكاكهم بحضارة المسلمين. ولنضرب بعض الامثلة على الاختلافات بين اوضاع العبيد في ظل السيطرة الانجليزية التي ترى في اللون الابيض علما على التفوق وفي اللون الاسود مرتعا لكل خبيث وشرير، واوضاع العبيد في ظل السيطرة الاسبانية والبرتغالية التي بحكم معاشرتها للعرب المسلمين في الاندلس كان من الصعب عليها تقبل الافكار البريطانية.

وفي امريكا الجنوبية لم يكن القانون يقضي بأن يظل العبد عبدا طوال حياته، أو أن يكون أولاده بالضرورة عبيدا كما كان الحال في امريكا الشمالية. ولقد توفرت في امريكا اللاتينية وسائل عديدة يستطيع بها العبد ان يسترد حريته مثل الخروج للعمل ايام الاحاد او العطلات البالغ عددها ٨٥ يوما في السنة، وكان من حق العبيد في كوبا والمكسيك ان يخبرهم سادتهم بثمن شرائهم فيقومون بدفعه على أقساط وكان من سلطة القاضي ان يحكم باعتاق العبد الذي يقع عليه عقاب ظالم، وكان من حق الرقيق البرازيلي اذا انجب عشرة اطفال ان يطالب بحريته.

بل ان مجتمع الرقيق في امريكا اللاتينية شهد قناة جديدة من قنوات تحرير العبيد هي اقرب ما تكون الى ثقافة المسلمين، وهي عتق الرقيق في المناسبات السعيدة مثل مولد الابن وزواج الابنة والشفاء والاعياد الدينية. وشاع بين ملاك العبيد شعور بأن تحرير العبد عمل نبيل كريم.

اما في الشمال الامريكي فان الصورة مغايرة تماما، فالاسود او داكن البشرة هو عبد ينظر اليه على انه عبد ما لم يثبت انه غير عبد. وفي ولايات جورجيا وكارولينا الجنوبية كان القانون ينص على ان جميع الزنوج الموجودين في الاقليم وكل نسلهم وذريتهم المولودين منهم والذين سيولدون هم بموجب القانون من العبيد وسيكونون كذلك في المستقبل وسيظلون الى الابد عبيدا بشكل كامل. وكان العبد المعتق يعود الى الرق اذا عجز عن سداد دين او غرامة. وكان من الصعب على العبد أن يجد بابا الى الحرية، ففي معظم المستعمرات البريطانية فرضت ضرائب تفوق ثمن العبد احيانا اذا اقدم سيده على تحريره بل انه في بعض المقاطعات كان مطلوبا أن توافق السلطات على تحرير العبد اذا رغب سيده في ذلك. ويحلول فترة تحرير العبيد لم يكن سوى ٦٪ من السكان السود في الولايات المتحدة احرارا، بينما كان ٧٥٪ من السكان السود في البرازيل احرارا.

وينبغي ان نلفت الانظار الى اننا لا ندافع عن عنصرية الاسبان والبرتغاليين في مواجهة عنف البريطانيين في امريكا الشمالية. فمن المبالغة القول بأنه لم يكن هناك تعصب عنصري في مستعمرات شبه جزيرة ايبريا، ولكننا فقط اردنا أن نسجل جانبا من نقاش علمي حاول أن يوجد تفسيرا لاختلاف درجة العنصرية بين المستعمرات التي انشأها البريطانيون في الشمال والتي انشأها الاسبان والبرتغاليون في امريكا اللاتينية. ان اكثر من باحث ومؤرخ قد اكد أن اتصال الاسبان والبرتغاليين في مراحل سابقة لعصر الكشوف الجغرافية بحضارات العرب المسلمين في الاندلس وشمال افريقيا قد هدم ركنا اساسيا من العنصرية الاوروبية التي رات في اللون الابيض تفوقا ورات في اللون الاسود تدنيا. لقد عايش الاسبان والبرتغال حضارة تفوق حضارتهم ورأوا أنها لم تكن حضارة شعب ابيض فاستحال عندهم أن يوحدوا بين السواد والتخلف.

وعلى الرغم من الكارثة التي اصاب بها الاوروبيون القارة السوداء لقرون عديدة فان العرب عندهم مازالوا متهمين باسترقاق الافارقة، يحاولون بهذه القضية دوما أن يزيحوا العرب والاسلام عن هذه القارة حتى يتمكنوا من الانفراد بها. وللأسف فان هذه النغمة الاستعمارية الخبيثة تجد من بين الافارقة من يرددها وتلك قضية اخرى.

لقد كان من نتائج الفتح العربي الاسلامي لافريقيا وما تبع ذلك من انتشار الاسلام في الثلث الشمالي من القارة، أن يدخل جزء كبير من هذه القارة في صميم التاريخ اكثر من أي فترة اخرى، وفي الوقت نفسه تحول البحر المتوسط الى منطقة التقاء شعوب قارات افريقيا وآسيا واوروبا، تلتقي عندها اراء ابناء هذه القارات، وافكارهم ولم تخسر افريقيا نتيجة لهذا كله، بل ما كسبته افريقيا من حضارة الاسلام يفوق كثيرا ما كان يمكن ان تكسبه من اتصالها باوروبا، والتي كانت تمر في تلك الفترات بما يمكن تسميته بالعصور المظلمة. ولعل الاحداث التي يشهدها جنوب القارة الافريقية حتى الآن تؤكد براءة العرب والمسلمين من تهمة الاستعباد التي يحاول الأوروبيون الصاقها بالعرب في الوقت الذي لايزال النظام العنصري في بريتوريا يتلقى مزيدا من العون والدعم من حضارة اوروبا!

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية